

تفسير ابن كثير

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى ، في إنزاله القطر من السماء (بقدر)

أي : بحسب الحاجة ، لا كثيرا فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلا فلا يكفي الزرع

والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به ، حتى إن الأراضي التي

تحتاج ماء كثيرا لزرعها ولا تحمل دمنتها إنزال المطر عليها ، يسوق إليها الماء من بلاد

أخرى ، كما في أرض مصر ، ويقال لها : " الأرض الجرز " ، يسوق الله إليها ماء النيل

معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها ، فيأتي الماء يحمل طينا أحمر ،

فيسقي أرض مصر ، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ، لأن أرضهم سباح يغلب عليها

الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور . وقوله : (فأسكناه في الأرض) أي :

جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له ، تشربه

ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله : (وإنا على ذهاب به لقادرون) أي : لو

شئنا ألا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا لصرناه عنكم إلى السباح والبراري [والبحار] والقفار

لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجا لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض ، بل ينجر على وجهها لفعلنا . ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا . ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبا فراتا زلالا فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، فيسقي به الزروع والثمار ، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم ، وتغتسلون منه وتطهرون وتنظفون ، فله الحمد والمنة .